الحارس الوصي

للكاتب الفرنسي: أندريه موروا andre maurois

١٨٨٥-١٩٦٧

حينما انتقلت روح «جين بيرتو» إلى بارئها ـ وكانت في الثلاثين من عمرها ظننّا جميعاً بأن مهنة «فيكتور بيرتو» قد انتهت إلى الأبد. وكان له من الصفات ما يؤهله للتربع في ساحة النجاحات السياسية فقد كان جاداً في عمله... وخطيباً مفوّهاً بزّ أقرانه وأبناء جيله. على أن خاصته والمقربين لديه ـ أمثالي ـ ممن شاركوه مقاعد الدراسة وفترة الخدمة العسكرية كانوا يدركون أن به نقاط ضعف تقف حجر عثرة في طريق تسنّمه منصب رجل دولة. كان يمكن تخيله وقد انتخب نائباً في البرلمان... وصوته الجهوري يزمجر بمفرقعاته اللفظية المعتادة بمجلس البرلمان على أننا لم نستطع ـ على الإطلاق ـ تخيله وقد ترأس الوزارة وعمل بانسجام مع رفاقه أو أنه قد... كسب احترام الأمة، إذ وازت إخفاقاته نجاحاته شهرةً وصيتاً.

وكان به ميل إلى النساء غريب... ميل تؤطره ثقة لا حدود لها في قدرته الفائقة على التأثير عليهن! وعندما يحتدم الجدل والنقاش بينه وصحبه كانت تحجب عينيه غمامة سوداء من فرط الثقة بنفسه وبصحة ما يقول حداً يجعله عاجزاً عن رؤية مزاياهم، وعلاوة على ذلك كله فقد كانت تجتاحه بين الفينة والأخرى نوبات هياج تقصي عنه أقرب الناس إليه ممن يحتاجهم غاية. ما كانت له سلطة على أعصابه فنفر منه الكثير. ذاك كله هو ما حملني على الاعتقاد ـ جازماً ـ بمحدودية ما قد يحرزه من نجاح على الصعيد السياسي إلى أن تزوج الآنسة «جين»! ولست أدري كيف تعرف عليها... بل... كيف راقت له إذ إنهما كانا

على طرفيّ نقيض. كانت هادئة... وكان هو ناري المزاج صعب المراس، كانت صامتة كتوماً فيما كان ثرثاراً مهذاراً وكانت معتدلة الآراء فيما كان متشدداً... متسامحة متساهلة فيما كان حاد المزاج. ورغم ذلك كله فقد أخذت على نفسها عهداً بتغيير ذلك كله... بكبح جماحه وتبديل طباعه ورغم أن حظها من الجمال كان أقل من غيرها بكثير إلا أن ذاتها كانت تنضح بسحر لا يقاوم، بصحة يانعة تبدت جليّة في تورّد خديها وإشراق عينيها ببريق لا يبدو جلياً لغير المرضى ممن أطفأ الوهن وهجه في مقلهم، وكانت لها ابتسامة مرحة صادقة. على أني أرى لزاماً علي الاعتراف بأني ما كنت أتوقع أن يكتشف «بيرتو» فيها تلك الفضائل ناهيك عن تقديرها والاعتراف بها طرًّا. ويبدو أني كنت مخطئاً إذ إنه منذ أن تم زواجهما... لم يفترقا يوماً... كانت تعمل معه وتصحبه إلى قاعة البرلمان كل يوم... وكانت ترافقه إبان جولاته في الدائرة الانتخابية لتسدي له النصح ـ في نهاية المطاف ـ بأسلوب حكيم ما أثار استياءه أو جرح كبرياءه يوماً.

وقاده زواجه الناجح إلى تسنّم مناصب عليا داخل دائرته ولم يعد ذوو الشأن يقولون عنه: «بيرتو»؟ أجل إنه ذكي لمّاح ومتحدث عظيم لكنه لا يعدو كونه شخصاً غريب الأطوار.

تبدل ذلك كله فنابت عنه عبارة: «بيرتو»؟ أجل إنه صغير السن نوعاً لكنه شخصية سياسية واعدة لاشك!.

وكانت نوبات الغضب تعاوده أحياناً على أن كلمة من «جين» ولمسة حانية تمرّ بها عليه... كانت كفيلة بكبح جماح غضبه وإعادته إلى جادة الهدوء والاطمئنان ثانية، ولم يعد «بيرتو» ذاك الفتى اللعوب... أحال روافد حبه وإخلاصه إلى نهر زوجته العظيم.

على أنّ ذلك الكم الهائل من النجاح وحسن الطالع قد تغير حينما ماتت «جين». وأتذكر أنني كنت عائداً من المقبرة مع الروائي «برتراند شميدت» وكان من أصدقاء الزوجين الخلّص حينما قال:

«لقد صنعت منه ما هو عليه الآن... ولا أخال حياته بعدها إلا منحدرة إلى الحضيض... ستبدي لنا الأيام ما كنا جاهلين. وتركت «بيرتو» يداوي جراحه بضعة أشهر مؤكداً له كتابةً بأني هناك إما احتاجني يوماً... وحينما انعقد البرلمان ثانيةً في شهر أكتوبر كان «بيرتو» من بين من حضر من الأعضاء. وحيّاه رفاقه بعطف ظاهر على أنه سرعان ما بدا صعب المراس عنيداً كما كان. وتوج ذلك عبوس تمخّض عما قاساه من مرارة الفراق والحرمان... على أن علاقتي به كانت عادية بل أني اعتدت أن أتناول وإياه طعام العشاء مرة أو اثنتين كل شهر... وكان يعاملني بودّ يشوبه بعض العبوس والتجهم المقبول نوعاً... تطور. حتى خامرته سخرية طفيفة قرأت في ثناياها أهمية الأمن والتحصن الذاتي.

وبحلول شهر ديسمبر... عيّنه «برايند» والذي كان مكلفاً بتشكيل مجلس وزراء جديد على منصب المدير العام للبريد وحينما ذهبت لتهنئته فور ظهور اسمه لم يكن في أحسن حالاته.

ـ وفِّر التهاني! قال لي بجفاء ـ ما حضرت سوى اجتماعين اثنين وقد أقدم استقالتي قريباً. لقد خضت معارك داميةٍ مع المالية والأشغال العامة... وعلى أي حال فإن هذه الوزارة كساحة حرب... والكل مسؤول هنا عداي! المدير العام.

وتوقعت لعدة أيام ـ بعد ذلك اللقاء المشحون ـ أن يرد نبأ استقالته على أن ذلك لم يحدث... وحينما التقيت «برتراند شميدت» بعد ذلك كان «فيكتور» ـ غني عن القول ـ محور حديثنا: قال لي:

ـ أسمعت عن تجربته المذهلة؟ فيما يختص بالرسالة التي وصلته؟

ـ أي رسالة تعني؟

ـ آه... يا له من موضوع رائع لرواية مثيرة! لا أدري إن كان قد نما إلى علمك بأن «بيرتو» ـ ذاك الغرّ... قليل الخبرة قد استحال أثناء إحدى الجلسات وحشاً كاسراً وحينما تجرأ وأهان المسكين «شيرون» أمام الجميع كان «برايند» على

وشك إقالته على أن انقلاباً مسرحياً مثيراً قد حدث إذ إن بطلنا المتصلب صعب المراس «فيكتور» قد انقلب رأساً على عقب! لقد توجه إلى خصمه فاعتذر منه بحرارة وحميمية وندم إلى الحد الذي حدا «بشيرون» إلى الاعتذار له شخصياً من «برايند» فعاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل هبوب العاصفة!

وكيف تفسر هذا التحول الغريب في شخصيته؟ سألته وبدد دهشتي حين أجاب:

ـ لقد شرح لي «فيكتور» بنفسه كل شيء فقال بأنه بعد حادثة الشجار بيوم كان يهم بمغادرة المنزل حين ناوله سكرتيره خطاباً خاصاً ألقى عليه نظرةً ارتعدت لها فرائصه. كان الخطاب قد وصل للتّو وتمعن في الخط الذي كتب به فخامره مزيج من مشاعر شتى تصطرع فيه الدهشة والمفاجأة والعاطفة والرعب حين عرف فيه خط زوجته الراحلة «جين» وفتح الظرف بيدين مرتجفتين فتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه... منها! الفقيدة الراحلة تلك التي زرعت فؤاده ورداً ورياحين ثم غابت فأجدبت بيادر الأمل في ذاته. لقد قرأ علي «فيكتور» ما دونته له ورغم أني لم أحفظ ما قرأ من صفحات عن ظهر قلب إلا أني كروائي أستطيع أن أبلور ذلك معيداً صياغته كيما يأتي على النحو التالي:

أيا أعز من لي:

لابد وأنك ـ بادئ ذي بدء ـ ستكابد من القلق والريبة ضروباً شتى إبان تلقيك رسالتي هذه... ولتكن واثقاً تمام الثقة يا حبيبي بأني لم أبعثها لك من طيات القبر فاهنأ بالاً ودع خوفك يفرخ.

قبل أن أدخل المستوصف. ماكنت ـ لما اعتراني من وهن وألم ـ جازمةً بنجاح العملية ولذا فقد اتجه تفكيري إليك بطبيعة الحال شرعت أتأمل فيما كان وما سيكون إن لم تكتب لي النجاة شدّما استشعر دخيلة ذاتك يا عزيزي... إنني أعرفك أكثر مما تعرف ذاتك... وهذا مصدر خوفي عليك... لست معك على قدم المساواة في الطاقات والقدرات إلا أني كنت دوماً بمثابة الكوابح لك إما

شارفت على مايوجب التوقف، وكما تعلم يا توأم روحي فإنه لابد للمحارب من استراحة وقلت لذاتي... ليس هناك مايمكن أن يفرق بيننا... حتى وإن افترقنا فستظل روحي تحوم حولك وإن وارى جسدي سديم القبور. ولذا فقد كتبت لك هذه الرسالة التي سأودعها لدى أحد الأصدقاء مرفقة معها تعليمات بأن تسلم لك إما غدرت بك الأيام وحدث ما توقعت.

لسوف تجد بين طيات هذه الرسالة... وفي تلك المواقف بالذات ما كنت سأقوله لك شخصياً لو كنت حية وإن أكبر دليل على صدق توقعاتي لهو وجود هذه الرسالة الآن بين يديك، أقبل الان فاضطجع إلى جانبي يا منية الروح... احضن يدي بين راحتيك وأرح رأسك على منكبي ثم أصخ السمع لما سأقول كما اعتدنا يوم كنا في رياض السعادة نجول و...

ـ ألفّقت هذا يا «برتراند»؟ سألته فجأة بين مصدق ومكذب.

ـ حتى وإن لم تقل هي ذات الكلمات فإني ما زدت على أن صورت أفكارها... زوجته «جين» أعني! لقد شهدت مزاياه ورزاياه... وقاسمته أفراحه وأتراحه وعلمته الكرم والاعتدال والصراحة.

ـ أهذا ما دعاه إلى زيارة «شيرون»؟

ـ وهذا ما جعله يعتذر منه كذلك!

عندما التقيت بـ«بيرتو» بعد أسبوع أكد على صحة ما قاله «شميدت» الروائي لي وبين لي والوجد في مقلتيه يلمع بوهج الآهات و المواجع أن «جين» كانت تحوم حوله... تداعبه بذكرياتها الرقيقة الحانية... فتؤثر بشدة... ملغية كثيراً من خطوط الوهم والتخبط في سياساته قاطبةً... وخيل إلي أني ألمح ذاك الغلاف السميك الذي يختبئ داخله والذي نسجت خيوطه من ألياف السخرية واللامبالاة... ينهار فجأة... ويتلاشى في أعطاف المجهول.

وما خاب ظني إذ إن الكثيرين قد علقوا بعد ذلك على ماتركته الرسالة في ذاته من بصمات تشرق نوراً وأنساً وأماناً واطمئناناً وسارت الأمور لعدة أشهر بما اشتهاه «فيكتور بيرتو» فأصلح كثيراً من الأوضاع في دائرة البريد ولهجت فرنسا بالثناء على إنجازاته حتى توسط نجمة كبد السماء.

وعندما سقطت حكومة «برايند» سافر «بيرتو» في رحلة استجمام إلى المغرب وهناك تعرف على «دورا بيرغمان» وأسَرَتْه بسحرها! كانت شاعرة تهوى استكشاف بلاد العالم متنكرة بزي كشافة عربية عبر شمال أفريقيا فأثارت الكثير من الجدل. ورغم أن أياً منا لم يكن يحبذ بقاء الشاب «بيرتو» دون زواج إلا أننا أبدينا كثيراً من التحفظ إزاء ميله للآنسة «دورا» الجميلة الموهوبة... السيئة السمعة في الوقت ذاته... إذ إن سيرتها الذاتية لم تكن ـ مع شديد الأسف ـ مبعثاً لكثير من الثقة... بل أنه قد تردد بأنها كانت عميلة لدولة أجنبية... وإذاً فإنه لم يكن هناك أشد منها خطراً على حياته ومستقبله المهني.

وعندما عاد معها إلى باريس حاول البعض إسداء النصح له بضرورة الابتعاد عنها على أن ذلك قد أثبت صحة المثل القائل بأنك إما نصحت صديقاً بالابتعاد عن امرأة ما فسينتهي الأمر بك إلى فقدان ذلك الصديق دون أن تمس للمرأة شعرة... وهكذا فقد أبقاني «فيكتور بيرتو» وأبقى «برتراند شميدت» خارج نطاق دائرة حياته ونفى معنا كثيراً ممن حاولوا نصحه كذلك! وغاب في خضم علاقته بـ «دورا»، حتى تردد صدى ذلك داخل الدوائر البرلمانية وعرّض بذلك حياته العلمية لأضرار جسيمة.

وقلت لـ «برتراند» ذات مساء: إن الأمل الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه هو أن تصل «فيكتور» رسالة من «جين» تحذره فيها من مغبة تماديه في علاقته تلك فتفتح عينيه على ما يحيط به من مخاطر إذ إنه لا يأبه لنصح غيرها.

ـ أنا واثق أن رسالتها تلك ستأتي إليه قريباً إذ إن «جين» كانت تعرف مدى ولعه بالنساء ومغبة ذلك فيما يتعلق بوظيفته. ليس هناك فتنة أشد من ذلك كما تعلم!.

ورغم ما أبديته من تهكم وسخرية حول ما أفاد به «شميدت» من أن الرسالة ستصل فقد أثبتت الأيام اليام صحة توقعاته! كم كانت سعادتنا غامرة حينما غادر «فيكتور» «باريس» إلى مقاطعته على عجل. ما أخبر أحداً أو ترك رسالة بل اتجه إلى منزله الريفي قرب «مونتيليمار» فدفن نفسه فيه.

وتبعته «دورا» فرفض أن يراها وأصرّت... وتوسلت إليه بدموعها وابتسامتها فما استكان أو لان... ثم هي ترفع رايتها البيضاء وتمضي جارّة أذيال الخيبة والهزيمة ورددت الصحف بعد ذلك أنها بصدد مغادرة البلاد في رحلة طويلة لاستكشاف «ريو دي أورو» فتنفسنا الصعداء إذ إننا أيقنا بنجاة «فيكتور» الذي عاد إلى باريس وأبدى سروراً جماً لمرآي.

وأخبرني رفيقي لاحقاً عن الرسالة الثانية التي وصلته بعد أن اخترقت طيات اللحود! وجدها «فيكتور» في بريد الصباح ونصحته إما تعرض لموجة عاطفية يوماً أن يغادر على الفور إلى مكان آخر اتقاءً لشر ذلك ـ:

ـ اعلم يا حبيبي ـ كتبت له بنبض قلبها ـ أدرك حق الإدراك بأنك إن قابلتها ثانية فستقع بين براثنها... وستعرض كرامتك وشرفك وكبرياءك لمخاطر جمة... ولسوف تكون الغلبة في النهاية لذكائك وحيطتك... ستتدبر نصيحتي فتدرك أي خطر كان يتهددك فلا تتردد... اطو الرسالة من فورك وضعها في جيبك... أعدّ حقيبتك واتجه صوب «دروم» في الحال. ورضخ الزوج الملتاع لذلك:

ـ إلى هذا الحد يا رفاقي وصلت ثقتي بحكمة زوجتي! قال، على أني تساءلت عما إذا كان سيبقى محصناً ضد النكبات طيلة حياته بتأثير من تلك المرأة التي رحلت عن دنيانا إلى غير رجعة؟ هل قلت طيلة حياته؟!

أكون إذاً قد جانبت الصواب إذ إن الأرمل الذي كان يستعجل الزواج ثانية قد تلقى من زوجته الراحلة خطاباً ثالثاً يبارك مسعاه.

وأخبرني «برتراند شميدت» بأن «بيرتو» قد شعر مرة ـ إبان تسنمه منصب وزير وكان ذلك عام ١٩٣٦ بتأنيب الضمير لتفكيره في الزواج ثانية... وظل ينتظر إشارة من حارسي الوصي... ممثلة في رسالة إرشادية من «جين» وحين لم يصله رد... توكل على الله وتزوج وبذلك قضى على حياته المهنية كرجل سياسة.

على أن «بيرتو» الذي كان يحكم مملكته العائلية الصغيرة في بلدته مع زوجته الثانية لم يكن بائساً تعيساً!.

بل أنه عاش معها حياة متوازنة لتظل تفاجئه بطفل بين الفينة والأخرى وربما كان ذلك الفأل الحسن هو ماتمنته له مستشارته الغائبة بين طيات الثرى.

obeikandl.com